قيمة البلاغة في الدراسات القرآنية .
مصنفات التفسير أنموذجا .

د. بن نعمية عبد الغفار
كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية
جامعة وهران 1

أولت مصنفات التفسير للجانب البلاغي أهمية بالغة، وعملت على تجسيد ضروبها وصورها في العديد من مسائل وقضايا التفسير، وهي فضيلة أملاها القرآن الكريم بدءا وهو كتاب العربية الأكبر، وبلاغته لا تقارن بحال، وكان لهذه الفضيلة أن عمد إليها المفسرون في الوقوف على مراده تعالى، باعتبارها مادة مصدرية في العملية التفسيرية.

إن الممارسة البلاغية الظاهرة في مصنفات التفسير تعدّت المعالجة العادية للآية أو السورة إلى مقصد الاستصحاب بين التفسير والبلاغة، بل تعدّت التقسيم المتعارف عليه في أنواع التفسير: من الفقهي، أو الصوفي، أو الموضوعي، أو الأدبي الاجتماعي، أو غيرها، وأضحت ظاهرة غالبة في مختلف هذه التقسيمات لا تكاد تخفى في واحد منها، وهو دليل على كونها علما ضروريا لا يستغنى عنها بحال، فالناظر في التفاسير الفقهية يقف على التنويه بعلم البلاغة ومواطن الإعجاز في العديد من الآيات، وذكر للفنون والصور البلاغية كما هو الشأن في مذكور الجصاص (ت 370هـ) في أحكام القرآن[1]، أو ابن العربي (453هـ) في أحكام القرآن[2] أيضا، أو القرطبي (671هـ) في الجامع[3]، أما التفسير الصوفي فصنيع النيسابوري (850هـ) في الغرائب قارب أن يكون تفسيره بلاغيا وهو الذي أفاض حديثا عن امتناع قصر البلاغة في الوصل والفصل[4]، وكذا ابن عربي (ت 638هـ) في الفصوص وإن كان تعامله مع النحو تماشيا مع النزعة الصوفية في محاولة إخضاع القاعدة النحوية إلى النظرة الصوفية.

أما التفسير الموضوعي فقد أظهر الراغب الأصفهاني (ت 502هـ) في كتاب المفردات[5] قدرة بلاغية في الربط بين المعنى المجازي والمعنى الحقيقي للمادة محل التعريف، عقب ذكر ما ينجر عنها من اشتقاقات، وهي بحق نادرة

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

بلاغية أملاها علم البلاغة أولا، وسليقة الرجل ثانيا، وغير بعيد عنه يردُ التفسير الأدبي والاجتماعي أكثر اهتماما بالاستشهادات الشعرية مواساةً لتفسير الآية، كما هو الشأن في تفسير المراغي (1371هـ)، أو ذكر ما قيل في تفسيرها من أبيات على نحو تفسيره لقوله تعالى ﴿أُولُوا الْعَزْمِ﴾ [6]

من جهة أخرى فإنّ اللمسات والمعاني البلاغية لم ترد في كتب التفسير على هذا النحو من جهة نمط المدرسة التي ينتمي إليها التفسير . التقسيم السابق . بل يظهر حتى في حال الاستغناء عنه والاعتماد المباشر على نماذج تفسيرية من التفسير بالمأثور كما هو الشأن عند الطبري (ت 310هـ) في جامع البيان، أو البغوي (ت510هـ) في معالم التنزيل، أو الخازن في لباب التأويل (ت 741هـ)، وغيرها، أو الاعتماد على التفسير بالرأي المحمود كما هو الشأن في تفسير البيضاوي (ت 685هـ) ، أو مدارك التنزيل للنسفي (ت 710هـ)، أو البحر المحيط لأبي حيان (ت 745هـ) وغيرها، وجميعها أظهرت علم البلاغة متكاملا مع التفسير لا يكاد ينشق أحدهما عن الآخر.

ولذا فقد أعملت البلاغة العربية فنونها في التوظيف التفسيري على عدة مستويات، فقد تظهر في تفسير الآية من جهة ما تحويه من صورة بلاغية، تشبيها كان أو استعارة أو كناية أو مجازا، وقد تظهر في شكل مثل سائر أو بيت من الشعر يؤيد التفسير، أو يضعّف قول مفسر آخر، كما هو الشأن في فن الاستدراكات والتعقيبات بين المفسرين.

وعليه تحاول هذه الصفحات الوقوف على مجمل هذه المعاني والتمثيل لها بنماذج تفسيرية، تُبيّنُ من خلالها قيمة البلاغة العربية في مصنفات التفسير، ومحاولة ربط الدرس البلاغي بالتفسيري، ومحاولة التوفيق بينهما بما يخدم مقوّم التكامل، ويستشرف للبلاغة نَفَسًا جديدا في علاقتها بالدراسات القرآنية.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

البلاغة العربية أساس في الأبحاث القرآنية:

بالرجوع إلى مختلف كتب ومصنفات وأبحاث الدراسات القرآنية ستكون البلاغة العربية قدما أساسية في التحليل والدرس، إن أردنا أن نتصفّح كتب الغريب فلنبدأ بمسائل ابن الأزرق التي كانت مربط فرس في تحديد بعض الألفاظ التي استعملها القرآن الكريم، وهي في قاموس العرب، وإذا أمكننا هذا فلا مانع من الاستدلال به على أن القرآن الكريم يُعارض العرب في بعض عاداتهم، ويعترف لهم بما جادت به قرائحهم الشعرية. وتُعدُّ دراسات بنت الشاطئ أبرز اهتمام علمي بمسائل ابن الأزرق، وفي غير موضع من كتابها المشهور[7] نلمحُ ذلك التدليل للشعر العربي بكتاب أساس البلاغة للزمخشري الذي اجتهد أيضا في التدليل للغريب جاعلا كل هذا من أساسيات البلاغة العربية. ومن الضروري التنبيه أن بنت الشاطيء تُفضّل اعتبار ظهور المصنفات الأولى الخاصة بالقرآن الكريم كتبا بلاغية خالصة رغم اختلاف المشارب العقدية التي أثرت بوضوح في تناول القرآن الكريم بالدرس والتحليل قائلة:" والواقع أن المصنفات الأولى في الإعجاز، على اختلاف مذاهب أصحابها، جاءت أشبه بمباحث بلاغية مما قدروا أن إعجاز القرآن يُعرف بها، وإن استوعبت أقوال المتكلمين في وجوه الإعجاز، فرسائل الخطابي السني، والرماني المعتزلى، والباقلانى الأشعري تأخذ مكانها في المكتبة البلاغية.وبعد أن استقلت البلاغة بالتأليف والتصنيف، وُجّهت إلى خدمة الإعجاز البلاغي" [8]: حتى عقدت فصلا كاملا عن علاقة البلاغيين بالإعجاز البياني.

إذا أردنا أن نوسع مجال البحث في هذا السياق سنقرأ مبكرا في كتاب النبأ العظيم ما يلي: القرآن إيجاز كله، يستوي في ذلك مواضع الإطناب والإيجاز والمساواة التي أطبق علماء البلاغة على تقسيم الكلام إليها"[9] ما يدلّ

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

أن القرآن الكريم قنّن للبلاغة علومها، وقيّد لها أسباب نجاحها في التداول اللساني، ومن أبرز الجحود في الكتاب سعي صاحبه إلى استخراج النظام البلاغي من الآيات التي لا يهتم بها البيانيون عادة، كأنه بذلك يؤسس لبلاغة القرآن في مختلف الآيات أحكاما أو أوامرا أو نواهيا.

في اطلاع جماعي على كتابات صبحي الصالح القرآنية حول علوم القرآن، . وهو المرجع الأكثر تداولا في علوم القرآن . لا أعتقد أننا نختلف في تحديد رؤيته وتجاهه، يرجع ذلك إلى تصريحه باجتهاده من خلال كتابه في "بث الحياة في الإطلاقات البلاغية القديمة كالتشبيه والكناية والمجاز والاستعارة"[10] ، ولن يكون ذلك إلا بمدارسة القرآن الكريم وبالنسبة له سيكون اجتهاده هذا كافيا في "تكوين فكرة صالحة عن استجماع القرآن كل مزايا النثر والشعر بأسلوب فذ عجاب"[11] ، ونعتقد أن الكتاب أشار إلى مسألة مختلفة في تقييد معنى المتشابه حين برّر إمكانية القول:"إن القرآن كله متشابه، إن أردنا بتشابهه تماثل آياته في البلاغة والإعجاز، وصعوبة المفاضلة بين أجزائه"[12] وجعل الآية التالية دليل مُسّهلا لهذا الفهم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾[13]

لا زلت المصنفات تحفظ حديثا غن شروط المفسّر وآدابه، والذاكرة أبضا تحتفظ بالجانب العقدي والجوانب التقليدية المسطورة في السطور، لكن اطلاعنا جميعا على كتاب مناع القطان ينتقل بنا إلى مرحلة مهمة في اكتشاف قيمة البلاغة العربية، بحيث يتجاوز الطرح التقليدي الشائع إلى مُجاورة علوم البلاغة إلى بعضها كشروط أساسية للمفسّر، فلا يكتفي بعلوم النحو والتصريف في تحديد الأبنية فحسب، بل يركّز أيضا على الكلمة على ثلاثة مستويات:

"الأول في موضع الإبهام بحيث يتضح معناها بمصادرها ومشتقاتها.

الثاني في خواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى،

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

الثالث: ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها.

الرابع: من ناحية وجوه تحسين الكلام –وهي علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع– من أعظم أركان المفسِّر. إذ لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يُدرك الإعجاز بهذه العلوم"[14]

العديد من الكتابات البلاغية القرآنية تحاول اتخاذ الموضوعية منهجا في التحليل، فلا تجعل البلاغة وليدة الحقل القرآني ولا هي سليلة غيره من مناحي الكلام والتعبير،وتحاول إبعاد الفهم السائد في أن مكانة البلاغة لا تظهر إلا في الحقل القرآني وعلى الصحة الغير المطلقة لهذا الطرح، فإني أعتقد أنّ "دور البلاغة العربية في قضايا النقد الكبرى ومنها الصراع بين القديم والجديد، والطبع والصنعة. ونقد الموازنات بين ما اتحد موضوعاً واختلف شكلاً من النصوص"[15] واضح وظاهر.كما أنّ لها شأنا عظيما في توجيه الأدب ونقده، "وأن مراعاتها تسمو بالأسلوب حتى لا تكون هناك درجة يمكن أن يقصر دونها، فلا وجه إذن للطعن فيها والتقليل من شأنها ، ولا يتوّج هذا كله إلا بإشارات القرآن الكريم إلى فضل القول البليغ"[16]

لازلنا نحاول أن نفهم ونطرح سؤالا مهما: "متى نبدأ بالتأريخ للسان العربي، هل من الجاهلية أم من لحظة نزول القرآن الكريم"، وفي صراع خفي بين بعض الكتابات البلاغية نلمس اختلافا في أسبقية البيان على البلاغة، لكننا نفهم سريعا أن الغرض من هذا الاختلاف هو تحديد زمن هذا التأريخ، ونحن نتفق جميعا أن البلاغة التي بدأت فنا في زمن الجاهلية تغازل الجمال التعبيري في أشعار الشعراء وخطب الخطباء، أصبحت علم قواعد وأصول تُغَازِلُ كل أنواع الخطاب بعد نزول القرآن الكريم،.وإذا أردنا الآن أن نوفق بين العرب الأوائل الذين تلقوا الخطاب القرآني الأول، وبين من جاء بعدهم في عصور التدوين لأعلنّا باطمئنان أنّ الجيلين كانا بين مقومين اثنين:"الالتفات والترتيب"، وكلاهما

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

لا ينفك عن الخطاب القرآني، فإذا كان "القرآن الكريم قد أثار منذ اللحظات الأولى لنزوله حركة فكرية عند مُتَلَقِّيه، ممَّا جعلهم يلتفتون إلى ما جاء به في أساليب التعبير والبيان"[17] فقد كان أيضا "عاملا رئيسيا ومساعدا على الشروع في الدراسات البلاغية بمختلف اتجاهاتها، وكان هذا العامل أهمَّ البواعث في إثارة الهمم للبحث الجادّ عن ترتيب وجوه الكلام، والتمييز بين الأساليب ومعرفة الجوانب الجمالية في نسيج تركيب الجملة العربية"[18] ومختلف علماء البلاغة والبيان والنحو يجمعون على هذا، ويبرّرون في عديد كتاباتهم أن نشوء علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع) كانت خدمة للقرآن الكريم ودفاعا عن إعجازه.

وفي الوقت الذي تحرص فيه مختلف الأبحاث القرآنية على تشجيع هذا النظر، جاعلة من خطاب القرآن الكريم القاضي البياني والموجّه البلاغي الأول والأخير، نجدها أيضا تدافع عن مكانة البلاغة في فصولها وأبوابها، فتجعل من القرآن الكريم مدخلا للمدارسة، وبراعة الاستهلال بما يفيد: "اعتبار إعجازه برهانا على أمر واقعي، وهو تقاصر البشرية دون مكانته من البلاغة"[19] نجدها تجعله أيضا من حسن تخلّصها قي اعتبار تساوي أوائل السور نزولا مع آخرها في البلاغة والبيان، "وأن نظمه من فاتحته إلى خاتمته غاية في الجمال، بحيث لا يتأتى مثله لأحد، ولا يبلغ مداه مهما فصح لسانه وبلغ بيانه متكلّمٌ"[20].،

العديد من المؤلفات المهتمة بقضايا التناسب والترابط بين الآيات والسور تنتصر بدقة إلى علوم البلاغة العربية كعامل أساسي في العملية التناسبية، وعليه تشترك المصادر[21] والمراجع الحديثة في صياغة العبارة التالية بما يُفيد ما تم تقريره سابقا:"وَالْقَاعِدَة الَّتِي يُرجع إِلَيْهَا فِي معرفَة ارتباط الْآيَات فِي جَمِيع الْقُرْآن: هُوَ أَن تنظر –كَمَا سبق– فِي الْغَرَض الَّذِي سيقت لَهُ السُّورَة، ثمَّ تنظر

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

مَا يحْتَاج إِلَيْهِ ذَلِك الْغَرَض من المقدِّمات، وَتنظر إِلَى مَرَاتِب تِلْكَ الْمُقدمَات فِي الْقرب والبعد من الْمَطْلُوب، وَتنظر عِنْد انجرار الْكَلَام فِي الْمُقدمَات إِلَى مَا يستتبعه من استشراف نفس السَّامع إِلَى الْأَحْكَام واللوازم الَّتِي تَقْتَضِي البلاغة شِفَاء الغليل بِدفع عناء الاستشراف إِلَى الْوُقُوف عَلَيْهَا، فَهَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَة المهيمنة على حكم الرَّبْط بَين جَمِيع أَجزَاء الْقُرْآن، فَإِذا عقلتها، تبيَّن لَك وَجه النّظم مفصَّلاً بَين كلّ آيةٍ وآيةٍ فِي كلّ سُورَة"[22] تلك هي البلاغة العربية التي لا يجد العديد من أهل البحث والتدقيق في عقولهم في الرد على من يقارن بين القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى في الترتيب الزمني، وتسلسل الأحداث، والوحدة الموضوعية . على حسب زعمهم . أفضل من البلاغة فاصلا وحاجزا، فهي الميزة الظاهرة والجلية، كما لم يجدوا غيرها في العلو والسمو والرقي فيصلا بين الأدب القرآني والأدب البشري.

في ذات السياق تتجه الأبحاث القرآنية والتفاسير المعاصرة إلى تأكيد مكانة البلاغة العربية في مدارسة الخطاب القرآني، وعند بعضهم فقد تحدى القرآن الكريم ببلاغته الفكر الإنساني أجمع[23]

البلاغة في كتب التفسير بالمأثور:

لا تختلف الأبحاث القرآنية في ترتيب تفسير الإمام الطبري في واجهة التفاسير بالمأثور، ولن نستطيع تبرير هذا السبق إلا بالرجوع لتاريخ التفسير، حيث انتقل نوعيا من باب إلى آخر، فبعد أن كان تفسيرا شفويا لدى الصحاب عليهم الرضوان، أصبح أقوالا متفرقة في حلقات وكيع بن الجراح وسفيان الثوري وغيرهما، ثم اهتم به علماء الحديث فأدرجوه ضمن أبوابه، كما هو واضح في الكتب الحديثية الستة التي نبّهت على فضله وعلومه.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

كل هذه المراحل كنت بيئة مناسبة للإمام الطبري الذي جعل من القرن الرابع فترة زمنية مهمة في حركة التفسير، بحيث استقل على يده بتفسيره المسمى بجامع البيان، أما اهتمامه بالبلاغة وبيان قيمتها فجاء على تميز ملموس، فالطبري الذي عُرف بالدقة اللغوية والنحوية، عرُف أيضا بتقديم القرآن في جميع محطاته التفسيرية كتاب البلاغة الأكبر، لذا يختصر لنا طريق إثبات مكانة البلاغة حين يربطها بالقرآن الكريم مباشرة، ومقولته المشهورة التالية شاهد واضح على هذا، قال في الجامع:" إذْ كان موجودًا في كلام العرب الإيجازُ والاختصارُ، والاجتزاءُ بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمالُ الإطالة والإكثار، والترداد والتكرار، وإظهارُ المعاني بالأسماء دون الكناية عنها، والإسرار في بعض الأوقات، والخبرُ عن الخاصّ في المراد بالعامّ الظاهر، وعن العامّ في المراد بالخاصّ الظاهر، وعن الكناية والمرادُ منه المصرَّح، وعن الصفة والمرادُ الموصوف، وعن الموصوف والمرادُ الصفة، وتقديمُ ما هو في المعنى مؤخر، وتأخيرُ ما هو في المعنى مقدّم، والاكتفاءُ ببعض من بعض، وبما يظهر عما يحذف، وإظهارُ ما حظه الحذف أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك، في كلّ ذلك له نظيرًا، وله مِثْلا وشبيهًا"[24] .

قد لا نقف على تنبيه ظاهر لقيمة البلاغة في تفسير الإمام البغوي، لكن استكمال صفحات الكتاب يكشف عن أهميتها بين سطور التفسير، فالبغوي يُفصّلُ التدليل عليها من جهة الربط بين الآيات والسور، أو ما عُرف في الدراسات القرآنية بالتناسب، ومدار ذلك عنده في التأسيس للتحدي الذي رفعه القرآن الكريم أمام العرب، ولأنّ منهجه يعالج أسبقية السور في النزول لمعرفة الكثير من الأحكام،

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

فقد فصّل تطبيق هذا المنهج على سورتي هود ويونس وكلاهما يستجمع آيات التحدي، ففي سورة يونس قوله تعالى:﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[25] وفي سورة هود قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [26]، بحيث ركّز البغوي في التفريق بين التحديث بسورة والتحدي بعشر سور من جهة أسبقية النزول أولا، ومن جهة دلالة كل آية منهما ثانيا، فقال:" قَدْ قِيلَ سُورَةُ هُودٍ نَزَلَتْ أَوَّلًا، وَأَنْكَرَ الْمُبَرِّدُ هَذَا, وَقَالَ بَلْ نَزَلَتْ سُورَةُ يُونُسَ أَوَّلًا, وَقَالَ مَعْنَى قَوْلِهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي: مثله في الخير عَنِ الْغَيْبِ وَالْأَحْكَامِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ, فَعَجَزُوا فَقَالَ لَهُمْ فِي سُورَةِ هُودٍ: إِنْ عَجَزْتُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهُ فِي الْأَخْبَارِ وَالْأَحْكَامِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مِنْ غَيْرِ خَبَرٍ وَلَا وَعْدٍ وَلَا وَعِيدٍ, وَإِنَّمَا هِيَ مُجَرَّدُ الْبَلَاغَةِ"[27] ، فاتضح أن البغوي بتطبيقه لمنهج المناسبات بين الآيات والسور يجعل التحدي بسورة على علاقة في مجموعة من المسائل والأحكام، وأما التحدي بعشر سور فيكون في البلاغة وحدها دون هذه الأحكام كما هو ظاهر كلامه. وهذا دليل مميز في قيمة البلاغة عند الإمام البغوي.

وقريبا من هذا نقرأ في تفسير ابن عطية ما يدعم منهج بعض المفسرين الذين يدارسون القضايا في ضوء شبيهاتها، كأنهم بذلك يفسرون القرآن بالقرآن، فابن عطية الذي يظهر مفضّلا للفظ الفصاحة على البلاغة من جهة اعتبارهما على مدلول واحد، لا يُخفي التصريح بمكانة الفصاحة من هذا الاعتبار، وتبعا للمنهج السابق الذي أشرنا إليه لا يميل أيضا إلى توجيه التحديث التوجيه الذي لا يناسب واقع العرب في بيئتهم، ولا يتوافق مع طبيعة الجزيرة العربية، لذا يُعارض بشدة نظرية الصرفة بقوله:"وبهذا النظر يبطل قول من قال إن العرب كان من قدرتها أن تأتي بمثل القرآن فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صرفوا عن

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

ذلك وعجزوا عنه"[28] ، والمقصود عنده من النظر هو اختزال:"نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة"[29]

يُفيدنا تفسير ابن كثير بمنهج آخر في التدليل على المسائل والقضايا، وذلك اعتماده في التدليل على مكانة البلاغة والفصاحة بعبارات مُجملة، رغم حرصه الشديد على إعلاء شأن الكتاب الكريم، فنجده يتخذ من البلاغة والفصاحة حاجزا مميزا في التفريق بين أشعار العرب والقرآن الكريم، بحيث لا تظهر تلك الأشعار في مواضيعها المختلفة على مرتبة واحدة، وبنبر لا تدلّ على الرضا بقول ابن كثير في الأشعار:" كَمَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَكَاذِيبِ وَالْمُجَازَفَاتِ الَّتِي لَا يَحْسُنُ شِعْرُهُمْ إِلَّا بِهَا، كَمَا قِيلَ فِي الشِّعْرِ: إِنَّ أَعْذَبَهُ أَكْذَبُهُ، وَتَجِدُ الْقَصِيدَةَ الطَّوِيلَةَ الْمَدِيدَةَ قَدِ اسْتُعْمِلَ غَالِبُهَا فِي وَصْفِ النِّسَاءِ أَوِ الْخَيْلِ أَوِ الْخَمْرِ، أَوْ فِي مَدْحِ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ أَوْ فَرَسٍ أَوْ نَاقَةٍ أَوْ حَرْبٍ أَوْ كَائِنَةٍ أَوْ مَخَافَةٍ أَوْ سَبُعٍ، أَوْ شَيْءٍ مِنَ الْمُشَاهَدَاتِ الْمُتَعَيِّنَةِ الَّتِي لَا تُفِيدُ شَيْئًا إِلَّا قُدْرَةَ الْمُتَكَلِّمِ الْمُعَبِّرِ عَلَى التَّعْبِيرِ عَلَى الشَّيْءِ الْخَفِيِّ أَوِ الدَّقِيقِ أَوْ إِبْرَازُهُ إِلَى الشَّيْءِ الْوَاضِحِ، ثُمَّ تَجِدُ لَهُ فِيهَا بَيْتًا أَوْ بَيْتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ هِيَ بُيُوتُ الْقَصِيدِ وَسَائِرُهَا هَذَرٌ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ"[30] ، أما القرآن الكريم فلا يجد ابن كثير أفضل من بلاغته وفصاحته وصفا، وبعبارة مجملة قال:" وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَجَمِيعُهُ فَصِيحٌ فِي غَايَةِ نِهَايَاتِ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ تَفْصِيلًا وَإِجْمَالًا مِمَّنْ فَهِمَ كَلَامَ الْعَرَبِ وَتَصَارِيفَ التَّعْبِيرِ، فَإِنَّهُ إِنْ تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَهُ وَجَدْتَهَا فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَبْسُوطَةً أَوْ وَجِيزَةً، وَسَوَاءٌ تَكَرَّرَتْ أَمْ لَا وَكُلَّمَا تَكَرَّرَ حَلَا وَعَلَا لَا يخلق عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا يَمَلُّ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَإِنْ أَخَذَ فِي الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ جَاءَ مِنْهُ مَا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الْجِبَالُ الصُّمُّ الرَّاسِيَاتُ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْقُلُوبِ الْفَاهِمَاتِ، وَإِنْ وَعَدَ أَتَى بِمَا يَفْتَحُ الْقُلُوبَ وَالْآذَانَ، وَيُشَوِّقُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَمُجَاوَرَةِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ"[31]

وعموما فأكثر كتب التفسير بالمأثور لا تميل إلى مصطلح البلاغة في الاستعمال، وتجعل من الفصاحة معنى مقايلا وملازما، كما أنّ تدليلها على أهميتها ومكانتها ظاهر لا يخفى بحال.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

البلاغة في كتب التفسير بالرأي:

تُحيلُ أغلب الدراسات والأبحاث القرآنية إلى مجموعة من كتب التفسير بالرأي على رأسها مفاتيح الغيب للإمام الرازي (ت 606هـ)، والقراءة المباشرة لتفسيره تؤكد تلك الموسوعية التي امتاز بها الرجل، أما ما تعلّق منه بالجانب البلاغي فعلى قدر وافر وزاخر، بحيث لا يتوانى الرازي في إعلان تلك الفروق بين خطاب البلغاء وخطاب القرآن من جهة قوله" ومن المعلوم أَنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ كَانَ فِي غَايَةِ الْبَلَاغَةِ وَنِهَايَةِ الْفَصَاحَةِ، فَإِذَا كَتَبَ كِتَابًا طَوِيلًا مُشْتَمِلًا عَلَى الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ، فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَظْهَرَ التَّفَاوُتُ فِي كَلَامِهِ بِحَيْثُ يَكُونُ بَعْضُهُ قَوِيًّا مَتِينًا وَبَعْضُهُ سَخِيفًا نَازِلًا، وَلَمَّا لَمْ يَكُنِ الْقُرْآنُ كَذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّهُ المعجز مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى"[32] وهذا كاف في استنطاق آراءه البلاغية انطلاقا من هذه القاعدة طيلة صفحات تفسيره.

يدافع الإمام الخازن عن قيمة البلاغة في تفسيره بالطريقة التي تندفع لها طريقته إلى العمق، فلا نجد آية تقتضي إعلاء شانها البلاغي إلا وأشار إليها، حتى إذا وصل إلى التباين بين أنواع الكلام ألقى عليه صبغة عقائدية ظاهرة وأعلن باطمئنان أن:" القرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب، وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق لأنه كلام الخالق وهو غير مخلوق ولو كان مخلوقا لأتوا بمثله قوله عز وجل"[33] ، ومن جنس هذا التأكيد والإعلان لا يتأخّر الإمام أبو حيان في تفسيره عن بيان هذه المكانة، فَمَنْ تَوَغَّلَ فِي أَسَالِيبِ الْفَصَاحَةِ وَأَفَانِينِهَا، وَتَوَقَّلَ فِي مَعَارِفِ الْآدَابِ وَقَوَانِينِهَا، أَدْرَكَ بِالْوِجْدَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ أَتَى فِي غَايَةٍ مِنَ الْفَصَاحَةِ لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا، وَنِهَايَةٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحَامَ عَلَيْهَا، فَمُعَارَضَتُهُ عِنْدَهُ غَيْرُ مُمْكِنَةٍ لِلْبَشَرِ، وَلَا دَاخِلَةٍ تَحْتَ الْقَدَرِ"[34] ، ولأنّ أبا حيّان لا يرضى بنظرية الصرفة كوجه في إعجاز القرآن الكريم، فلا يتوانى أيضا في الإنقاص من شان القائلين بها من جهة الذوق

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

والبيان، وموضحا أنّ اعتقاد هذه النظرية يعني احتمال إمكانية الإتيان بمثله وعليه فإنّ هذا:"مِنْ نُقْصَانِ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ"[35]

غير بعيد عن رأي أبي حيان لا يبدو الإمام النيسابوري في تفسيره موافقا لنظرية الصرفة أيضا، ويجتهد في إثبات وجوه الإعجاز من جهة مكانة البلاغة العربية وعلاقتها بالإعجاز، حيث ينتصر صريحا لنظرية "الذوق كمكمن للإعجاز الذي يُدرك ولا يمكن وصفه، وعليه تتعلق مسائله من سماع أسلوبه وتأثير نظمه"[36]

تحتفظ كتب التفسير بالرأي بآراء واضحة في إعلاء شأن البلاغة وقيمتها، وحين نقرأ تفسير أبي السعود المسمى ب: "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" سنكتشف تلك القدرة العالية في معالجة قضايا القرآن الكريم انطلاقا من أساسيات بلاغية، و حين نصادف إزاء هذا مقولة الذهبي في التفسير والمفسرون:"والحق أن هذا التفسير غاية في بابه، ونهاية في حسن الصوغ وجمال التعبير، كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية، بما لم يسبقه أحد إليه، ومن أجل ذلك ذاعت شهرة هذا التفسير بين أهل العلم، وشهد له كثير من العلماء بأنه خير ما كُتب في التفسير"[37] سندرك تلك الملكة الذوقية الدقيقة التي اجتهد لأجلها صاحب الإرشاد، لبيان فروق الكلام العربي مع كلام القرآن على أوجه البلاغة المعروفة، لذلك نجده يقول:" لما أن كل كلام له حظ من البلاغة وقسط من الجزالة والبراعة لا بد أن يُوفَّى فيه حقُّ كلَ من مقامي الإطناب والإيجاز فما ظنُّك بما في ذُروة الإعجاز من التنزيل الجليل"[38]

في مساحة واسعة في روح المعاني يبسط الآلوسي آراءً مشهورة في إعجاز القرآن الكريم، ورغم اتفاقها الظاهري في اختلاف لفظ القرآن عن اللفظ العربي، إلا أن الآلوسي يجتهد في اختيار الوجه الأنسب، فنجده حين يُبعد نظرية الصرفة[39] بذكاء، يميل إلى اختيار الرأي الأكثر شهرة عند الجمهور

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

قائلا:"والمشهور عند الجمهور الاقتصار على بلاغته وفصاحته حيث بلغت الرتبة العليا والغاية القصوى التي لم تكد تخفى على أهل هذا الشأن حتى النساء.."[40] ، وظلّ هذا ديدن الآلوسي في تفسيره، بحيث يُغلي من شأن البلاغة في كل موطن يستلزم ذلك.

من أشهر التفاسير الموصوفة بالبلاغية تفسير الزمخشري الذي جاء واضحا في اعتبار البلاغة أساسا عنده في الكشف عن مدلول الخطاب القرآني، وبعيدا عن المسلك العقدي الاعتزالي الذي أورد على الزمخشري آراءً ناقدة[41] ، تحتفظ له أخرى بقوته في تفسير النص القرآني على وفق التأصيل البلاغي، هذا الاعتراف الذي ننتبه له أيضا في رفوف المكتبات القرآنية ليس من تفسيره فحسب، بل من كتابه المسمى ب: "أساس البلاغة"، الذي وصفه محققه بقوله:"وهو كتاب لم تزل نعام القلوب إليه زفافة، ورباح الآمال حوله هفافة، وعيون الأفاضل نحوه روامق، وألسنتهم بتمنيه نواطق "[42]

حتى غدا مصدرا في كتب معاني القرآن، وتأويل مشكله، وبيان غريبه، ودلائل إعجازه، وخصائص سوره وتناسيها، وجماليات ألفاظه، وفي عبارة وافية شافية يحدّد الزمخشري مهمة المفسر من جهة البلاغة في قوله:"ومن حق مفسر كتاب اللّه الباهر وكلامه المعجز، أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدّي سليما من القادح"[43]

وحدها البلاغة في القرآن الكريم تطوي مراحل زمنية معتبرة، وتُقدّم النص كاملا رغم قلّة ألفاظه، هي أحكام نلمسها في مجالس تذكير ابن باديس، وأربع آيات فقط من سورة سبأ كانت كافية عند ابن باديس في استوعابها تاريخ أمة في سطور، وتصويرها أطواراً اجتماعية كاملة في جمل قليلة أبدع تصوير، ووصفها لبعض خصائص الحضارة والبداوة في جمل جامعة، لا يحملها غير اللسان العربي"[44] وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19) ﴾[45]

البلاغة في التفسير الفقهي:

لا تخلو كتب التفسير الفقهي من الإشارات البلاغية الدالة على اهتمام الفقهاء بهذا الجانب، فحين نقرأ للجصاص (370هـ) وهو من الحنفية ستكون أول قراءة بلاغية له في التفسير تأكيده أن الفرق بين كلام فصحاء البشر وكلام الله تعالى قدرة هذا الأخير على "جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة"[46]، بل حصر قاعدته في النظر لبعض الفروق بين كلام الفصحاء وكلام القرآن في مسألة الإبانة التي يتميز بها القرآن الكريم:" فِي جِهَةِ الْبَلَاغَةِ وَالْإِعْجَازِ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ إذْ لَيْسَ يُوجَدُ فِي كَلَامِ الْفُصَحَاءِ مَنْ جَمَعَ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةَ فِي الْأَلْفَاظِ الْيَسِيرَةِ مِثْلَ مَا يُوجَدُ فِي كلام الله تعالى" [47].

وحين نتابع مدارسة كتب أحكام القرآن يلازمنا هذا التأكيد عند القرطبي (671هـ) المالكي في معرض حديثه عن عجز العرب في التصدي للقرآن الكريم، وينقل شذرات من المقارنة بين اللفظ النبوي واللفظ القرآني نجده يقول:" فَبَلَاغَةُ الْقُرْآنِ فِي أَعْلَى طَبَقَاتِ الْإِحْسَانِ، وَأَرْفَعِ دَرَجَاتِ الْإِيجَازِ وَالْبَيَانِ، بَلْ تَجَاوَزَتْ حَدَّ الْإِحْسَانِ وَالْإِجَادَةِ إِلَى حَيِّزِ الْإِرْبَاءِ وَالزِّيَادَةِ. هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ مَا أُوتِيَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَاخْتُصَّ بِهِ مِنْ غَرَائِبِ الْحِكَمِ، إِذَا تَأَمَّلْتَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صِفَةِ الْجِنَانِ، وَإِنْ كَانَ فِي نِهَايَةِ الْإِحْسَانِ، وَجَدْتَهُ مُنْحَطًّا عَنْ رُتْبَةِ الْقُرْآنِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:" فيها مالا عَيْنٌ رَأَتْ

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ" وَفِيها مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ". وَقَوْلُهُ" فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ". هَذَا أَعْدَلُ وَزْنًا، وَأَحْسَنُ تَرْكِيبًا، وَأَعْذَبُ لَفَظًا، وَأَقَلُّ حُرُوفًا"[48] ، ولا يزال القرطبي يؤكد على هذا المعنى في مواطن عديدة ومتكررة.

البلاغة والتفسير العلمي:

من جانب موضوعي يقودنا الحديث عن البلاغة في كتب التفسير إلى التفسير العلمي الذي يجد مخاضا صعبا بين مؤيد ومعارض، ويكاد حديثنا هنا عن البلاغة لا يجد له سندا في هذا اللون من التفسير، خاصة وأنّ طائفة المعارضين تزداد اتساعا من وجهات نظر مختلفة، فالشاطبي مثلا من القدامى لا يُظهر أدنى انتصار للتفسير العلمي وساق العديد من الأدلة تعزل البلاغة فيه تماما، ورغم البلاغة التي عرفها اللسان العربي وعرفها القرآن الكريم، وعرفها العرب في القرآن الكريم، إلا أنّ هذا لم يرتقي عند الشاطبي دليلا في التفسير العلمي الذي يعوّل العديد من أنصاره على بلاغة اللفظ العربي وبيانه ،واعتبر هذا تجاوزا في الدعوى على القرآن[49] ، وكذلك الذهبي وهو من المحدَثين لا يعارض الشاطبي في نظره، واللافت للنظر هنا أن الذهبي يجعل من البلاغة دليلا معارضا للتفسير العلمي، "وذلك لأن مَن خوطبوا بالقرآن في وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعاني وكان الله يريدها من خطابه إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ، لأنه لم يراع حال المخاطب وهذا سلب لأهم خصائص القرآن الكريم. وإن كانوا يعرفون هذه المعاني فلِمَ لَمْ تظهر نهضة العرب العلمية من لدن نزول القرآن الذي حوى علوم الأوّلين والآخرين؟ ولِمَ لَمْ تقم نهضتهم على هذه الآيات الشارحة لمختلف العلوم وسائر الفنون... وهذا أيضاً سلب لأهم خصائص العرب ومميزاتهم"[50]

من جهة أخرى فكثيرا ما نصادف في المكتبة القرآنية العبارات التالية:

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

1- تجميع الآيات التي تعالج قضية واحدة.

2- مراعاة تعدد معاني الألفاظ.

3- خضوع التفسير لدلالات اللغة العربية وقواعدها.

4- عدم العدول عن حقيقة اللفظ إلى مجازه كلما توفر"[51]

وسريعا نعرف أنها بعض الضوابط العلمية الواجب توفرها في هذا اللون من التفسير، مما يُعينُ البلاغة العربية في استعادة دورها التفسيري وهيمنتها في مختلف أنواع دلالات اللفظ القرآني. تلك هي البلاغة التي كانت معيارا في التنافس العربي الشعري، ثم أصبحت دليلا في إيمان الناس، ثم عاملا في إدراك معاني القرآني، ثم شرطا في التصدي لتفسير كتاب الله تعالى، حتى غدت مساحة واسعة في التأليف والتصنيف والإبداع. وكتب في نشأتها وتاريخها الكاتبون، وفي تطورها ومراحلها المتتبعون، وفي مناهجها المجددون، فتنوعت بذلك فروعهم في توصيفها من الوصايا والآراء والتحديدات والمجازات والصناعات والنظم والقواعد والإشارات والرسائل وغيرها من التسميات.

فمن الواضح إذا أن البلاغة وإن سبقت القرآن الكريم كفن تعامل به العرب في أشعارهم، إلا أن قواعدها العلمية لم تنشأ إلا خدمة للكتاب العزيز وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ومن الواجب إسداء خدمة التقدير لجهود العلماء الذين بذلوا في سبيل هذا غاليا ونفيسا، فخدموا القرآن الكريم واحترموا اللسان العربي، وخلّدوا للمكتبات القرآنية بلاغة النداء في القرآن، والاستفهام، والقصر، والشرط، وغيرها من المباحث الثرية النافعة.

لم يهنأ العقل العربي الحريص على بيان القرآن حتى جعل من البلاغة مربط فرس في القراءات القرآنية أيضا، وحديث نزول القرآن على سبعة أحرف لا يزال شاهدا على هده القيمة، بحيث يمكننا أيضا الاستدلال بها على رعاية اختلاف

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

الألسنة وقد ثبت الحديث بأكثر طريق لا تختلف جميعها في هدفها القائم على رفع الحرج على الأمة باختلاف ألسنتها.

يجرّنا هذا إلى التنويه بدور البلاغة العربية كذلك في الحديث عن اللهجات العربية وعلاقتها بالقرآن الكريم، حتى فسّر بعضهم حديث الأحرف السبعة باللهجات السبع، ولا تزال المصنفات تحتفظ بالآراء التي تجاوزت الأربعين في تحليل الحديث وبيان مدلوله، ورعاية لبلاغة القرآن العالية فقد فضّلت بعض الأبحاث أن تعتبر القرآن شاملا لأخف اللهجات وأحسنها وأعذبها حفاظا على اللسان وتيسيرا لتلقي الأسماع له، ولا تفسير لهذا سوى ما تُقدّمه هذه البلاغة من تسهيلات تحافظ على الموروث العربي، وتحفظ للقرآن مكانته وقيمته.

كثيرة هي الكتب التي تتناول مفاتيح التعامل مع القرآن الكريم، فإن كان بعضها عقدي محض، فبعضها الآخر بلاغي وبياني، وبعضها يُعضّد هذا بذاك، وعموما فإن القدامى كانوا أكثر الأجيال فهما لهذه الضوابط حين يوصف أحدهم بالمفسّر واللغوي والنحوي والفقيه والمؤرخ والأديب فتعاملوا مع كتاب الله تعالى يما يليق بمقامه.

خاتمة:ا

هذا غيض يسير من فيض واسع في الحديث عن البلاغة العربية التي انتظمت بأبوابها في رفوف المكتبة القرآنية، فلا نكاد نُصادف كتابا يتناول القرآن الكريم بالدرس والتحليل والتفسير إلا وجدناها أساسا رصينا، لا نفرق في هذا الحكم بين مختلف الكتب الإسلامية والشرعية، وإن كان هذا المقال قد تناول التفسير بالتمثيل، ففي الكتب العقدية والأصولية والحديثية ما يزيد من تبيان مكانتها ومنزلتها.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

من حق المطّلع على هذا أن ينتقد حصر قيمة البلاغة العربية في الزاوية القرآنية، فهذا وإن كان ظاهر المقال، فلأنّ البلاغة لم تظهر قيمتها إلى في البحوث القرآنية وفي التفسير بالضبط كانت هي الملجأ الموضوعي في حل مشكلات النص، وزيادة على ما أثبتناه آنفا فالعلماء ما منعوا الترجمة الحرفية للنص القرآني إلا بسبب ضياع المعنى الذي يحرص القرآن الكريم على مسايرته والحفاظ عليه، وهذا المعنى لا يمكن إطلاقا الوقوف عليه في النص المترجم لانعدام البلاغة فيه، فهي لا تنتقل من النص الأصلي إلى النص الفرعي أو المؤول، ولا تزال هذه الإشكالية قائمة حتى في النصوص الأدبية التي تعاني من اتهام المترجمين بإزالة وإخفاء وتضييع المقصد الرئيسي من النص، فما بالك بكتاب الله العزيز الموصوف بكل صفات الكمال والجمال، والدقة والبيان.

في خضم التأكيد على هذه المكانة تدعو بعض الأبحاث الأدبية المعاصرة إلى إعادة وضع تصور جديد للبلاغة العربية يلائم من انتهت إليه الحركة الأدبية والإنشائية، وحين معاينة هذه الدعاوى نكاد لا نقف على ربط هذا التصور بالقرآن الكريم، ولا نعتقد تعمد هذا الفصل بين المسألتين، بقدر ما هو تحصيل حاصل، فالخطاب القرآني الذي يلائم بطبيعته كل وضع جديد لا يَمس بأصوله، سيجد الباحثون حتما ما يربط البلاغة العربية في وضعها الجديد بالخطاب القرآني، خاصة إذا علمنا أن هذا الطرح يركز على إستبدال التقسيم الثلاثي لعلم البلاغة بموضوعها وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهو الغاية في القرآن الكريم.

إن تتبع فصول وأبواب البلاغة العربية عبر تاريخها يشير إلى مسألة يعتبرها البعض سلبية، وهي كثرة التفريعات والتسميات، وحتى التقسيم الثلاثي (المعاني و البيان والبديع) عانى من كثرة الردود، لكنها من جانب آخر تتعبر بقوة عن ثراء

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

المعرفة العربية، والأكثر من هذا أننا حين نربط علوم البلاغة هذه بالقرآن الكريم لا نحصل على ذات التسميات، فما كان عند العرب مغالطة كان في القرآن أسلوبا حكيما، وهكذا تنتظم البلاغة العربية في شعرها ونثرها بما فاقت الآداب العالمية، كما انتظمت في آيات وسور القرآن الكريم بما أدهش العرب جميعا.

من الضروري في ختام هذا المقال التنبيه إلى ما تعانيه الدراسات القرآنية في الجامعات من سطو علمي من بعض غير المتخصصين الذين انتسبوا إليها صدفة، أو المتخصصين الذين ساقتهم الظروف إليها، فادعوا التجديد وهم الفاشلون حتى في فهم مدلول المعرفة القرآنية، وعليه يلجأون إلى الإغراب في العبارة والتعقيد في التعبير، وكلّها أعداء للبلاغة العربية، لذلك نجد العديد من كتب البلاغة القرآنية تركّز على ضرورة معرفة خصائص اللسان العربي لمن أراد التصدي لدراسة الخطاب القرآني، ومن دون هذا لا تبينُ بلاغة العرب من بلاغة القرآن، ولا تظهر قيمة البلاغة التي عرفها اللسان العربي ضمن فصول البلاغة التي أقرّها القرآن الكريم.

فلا ينبغي إذا إيضاح الخطاب القرآني لمن جهل لسان العرب، ولا دراسة لسان العرب لمن جهل العرب ذاتهم فبينهما على الثابت في المصنفات علاقة جوهرية مميزة يثبت بها الإعجاز في دراسات الباحثين.

الهوامش:

1. الجصاص ، أبو بكر أحمد بن علي ، أحكام القرآن، تحقيق، محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405هـ، ج1، ص 197

2. ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، مراجعة محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، القسم الثالث من أول سورة يونس إلى آخر سورة الأحزاب، ط3، 1424هـ ، 2003م، ص 205.

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

3 . القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ، 1964م، ج2، ص 242.
4 . النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق، زكرياء عميران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1416هـ، 1996م، ط1، ج1، ص 45.
5. الراغب الأصفهاني حسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق، صفوان عدنان داودي، دار العلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، 1412هـ، ج1، ص 19.
6 . سورة الأحقاف الآية 35/ أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ج26، ص 41.
7. يُقصد به كتابها الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق
8 . عائشة عبد الرحمان، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، ط3، ص 94
9 . محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، تقديم، عبد العظيم إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، ، 1426هـ، 2005م، ص 8
10 . صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، ط24، 2000، ص 8
11 . المرجع نفسه، ص 8
12 . المرجع نفسه ص 201
13 . سورة الزمر الآية 23
14 . مناغ القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط3، 1421هـ، 2000م، ص 342
15 . المطعني عبد العظيم، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، طض، 1413هـ 1992م، ط2، ص 10
16 . المرجع نفسه ص 11
17 . أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال، عناية المسلمين باللغة العربية خدمة للقرآن الكريم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ص 30
18 . المرجع نفسه، ص 30
19 . حسن عبد الفتاح أحمد، عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ص 91،

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

20 . المرجع نفسه، ص 91

21 . السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ، 1974م، ص 376/ البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الذرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 18

22 . عادل بن محمد أبو العلاء، مصابيح الذرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط129، 1425هـ، ص 93

23 . محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، ص 175

24 . الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ، 2000م، ج1، ص 12 .

25 . سورة يونس الآية 38

26 . سورة هود الآية 13

27 . عبد الله بن أحمد بن علي الزيد، مختصر تفسير البغوي، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1416هـ،ج4، ص 421

28 . ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، ج1، ص 52

29 . المصدر نفسه،ج1، ص 52

30 . ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تحقيق، سامي بن محمد سلامة،دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ، 1999م. ج1، ص 200

31 . المصدر نفسه، ج1، ص 200

32 . الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ، ج10، ص 152

33 . الخازن علاء الدين، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق، محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 1415هـ، ج3، ص 146

34 . أبو حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، ج1، ص 17

35 . المصدر نفسه، ج1، ص 17

36 . النيسابوري نظام الدين، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق، زكرياء عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1416هـ، ج1، ض 191

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com

37 . الذهبي محمد حسين، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ج1، ص
247
38 . أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى
مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج1، ص 52
39 . الآلوسي، شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،
تحقيق، علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ، ج1، ص 34
40 . المصدر نفسه، ج1، ص 33
41 . أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السن، ط4، ص
131
42 . الزمخشري، أبو القاسم محمود، أساس البلاغة، تحقيق، محمد باسم عيون
السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ، 1998م، ج1، ص 15
. الزمخشري، أبو القاسم محمود، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب
العربي، بيروت، ط3، 1407هـ، ج1، ص 68 43
44 . ابن باديس عبد الحميد، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تحقيق أحمد
شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ 1995م، ج1، ص 398
45 . سورة سبأ الآيات 15 . 19
46 . الجصاص، المصدر السابق، ج1، ص 197
47 . المصدر نفسه، ص 197
48 . القرطبي، المصدر السابق، ج1، ص 77
49 . الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، تحقيق، أبو عبيدة مشهور بن حسن
آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ، 1997م، ج2، ص 127
50 . الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص 359
. علي علي صبح، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، المكتبة الأزهرية للتراث،
ص 10 51

Pdf créé avec la version d'essai pdfFactory Pro www.pdffactory.com